

تعقيب على بحث "شعراء عباسيون:
ملحوظات وإضافات جديدة"

هلال بن ناجي

مدار البحث المنشور في العدد السادس والسبعين من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني للدكتور عبد الرزاق حويزي هو استدراك على كتاب "شعراء عباسيون": دراسات ونصوص شعرية حبرها المستشرق النمساوي غوستاف فون غرونباوم، وكان قد نشرها في مجلة ORIENTALIA بين عامي ١٩٤٨-١٩٥٣، ثم ترجمها، وأعاد تحقيقها، واستدرك عليها د. محمد يوسف نجم، وراجعها د. إحسان عباس - رحمه الله - ونُشرت الترجمة في بيروت سنة ١٩٥٩.

إن أهمية أيّ استدراك على ديوان ما، تجيء في نشره في مدة قريبة من تاريخ صدور الديوان المستدرك عليه نفسه، وليس بعد ستة عقود من صدوره؛ لسبب علمي محض، يتلخّص في أنّ صدور عشرات المصادر، وكتب الاختيارات الشعرية خلال هذه المدة الطويلة، يجعل أمر هذه الاستدراكات ميسوراً لظهور مصادر لم تكن مطبوعة، عندما أعدّ الباحث أو صانع الديوان الكتاب المنقود.

إنّ ظهور مجموعات شعرية ضخمة من كتب الاختيارات الشعرية أمثال: الحماسة البصرية، والتذكرة السعدية، والتذكرة الفخرية، ومنتحل الميكالي، والذّر الفريد، ومنتهى الطّلب، وكتاب الزهرة، وقطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور، وتاريخ دمشق، والإماء الشواعر، والجلّيس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافعي، والمنصف، وربيع الأبرار، والأنوار ومحاسن الأشعار، والكشف والتنبية على الوصف والتشبيه، وحماسة الظرفاء، والحماسة المغربية، وحدائق الأنوار وبدائع الأشعار وغيرها، قد وفّر مادة غزيرة لصنّاع الدّواوين من الهواة

والغواة وبعض أساتذة الجامعات. وبسبب ما تقدّم، فقد أصبح البحث ذاته مُستهكاً بعد أن تعاقب عليه أكثر من عشرة باحثين مستدركين، خلال نصف قرن من الزمن، كان في مقدمتهم مترجم النص الدكتور محمد يوسف نجم، الذي أضاف في ذيل الكتاب ثمانية وستين بيتاً. واندفع آخرون إلى تحقيق دواوين بعضهم على انفراد.

فحقّق د. ثابت محمود معروف وواضح الصمد، كل على انفراد، شعر سلم الخاسر. وحقّقت د. كارين صادر ديوان أبي الشمقمق.

عدا استدراقات كثيرة نشرها صبيح صادق، وحاتم غنيم، ومحمد يحيى زين الدين، ووليد السراقبي، وإبراهيم صالح. وهكذا استهلك البحث، ولم يقدّم مادة فيها إضافة معرفيّة أصيلة ذات بال.

مناقشة المستدرک على شعر مطيع بن إياس

(١)

بالرقم أعلاه أورد الباحث نتفة هذا نصّها:

ما رأينا جـ بلاً قَبْ — لك يمشي في الفضاءِ
أنتَ كانونٌ علينا — ليس كانونَ الصّلاءِ

أقول: وقع الباحث في خطأ عدم ذكر المناسبة، ولا فيمن قيلت، ومتى؟
خلافاً لقواعد التحقيق العلمي من ضرورة شرح المناسبة التاريخية، واسم الممدوح.

(٢)

بالرقم المذكور أورد الباحث نتفة أولها:

إِنِّي اتَّخَذْتُ عُدُوَّةً فَسَقَى الإِلَهَ عُدُوَّتِي

أورد ما تحته خط (بشدة فوق الواو عليها فتحة)، وهي كلمة مغلوبة لا وجود لها في معاجم العربية. صوابها: عُدُوَّةٌ - عُدُوَّتِي.

جاء في اللسان مادة (عدا): عِدَاءٌ كَلَّ شَيْءٍ. وعُدُوَّتُهُ طَوَاؤُهُ، وهو ما انقاد معه من عرضه وطوله.

(٣)

تحت الرقم (٣) أورد الباحث البيت التالي:

لَهَا لَوْنٌ كَلَوْنِ الْوَرْدِ دَلْوٌ قَطَرَتْهُ قَطْرًا

أغفل ذكر الغرض الذي نُظِمَ فيه هذا البيت خلافاً لقواعد التَّحْقِيقِ.

مناقشة المستدرك على شعر سلم الخاسر

استدرك الباحث على شعر سلم الخاسر خمسة عشر بيتاً.

النتفة رقم (١)

خَلِيلِيَّ مَا لِلْعَاشِقِينَ قَلْبُوبٌ وَلَا لِعَيُونِ النَّاطِرِينَ ذَنْبُوبٌ
فِيَا مَعْشَرَ الْعُشَّاقِ مَا أَبْغَضَ الْهَوَىٰ إِذَا كَانَ لَا يَلْقَى الْمَحَبَّ حَبِيبُ

جَرَّدَهَا الْبَاحِثُ مِنَ الْمُنَاسِبَةِ خَلِيفاً لِمَا وَرَدَ فِي مَصْدَرِهَا "الإِمَاءُ الشَّوَاعِرُ".

وفي المصدر بعد أن أورد سند الرواية قال: دخلت يوماً إلى عنان جارية النطاف، فسألنتني أن أقيم عندها، ففعلت، وأتينا بالطعام والشراب، فأكلنا وشرينا وغننتي، فكان غناؤها دون شعرها، وشربت سنة و(....) خمسة، فتعافلت، وقلت: غنّني صوتي في شعر سلم، ثم أورد البيتين فغنّت: [بيتين فاحشين].

النتفة رقم (٢)

ونصّها كما أورده الباحث نقلاً عن كتاب "التدوين في أخبار قزوين":

بيدي أمير المؤمنين المصطفى هارون قام الدين والمنهاج
إن الخلائف من قريش خيرها بعد النبي خليفة حجاج

قلت: فات الباحث ذكر تفاصيل المناسبة، وشرح كلمة حجاج الواردة في النص.

وقد ورد في النص ممّا أغفله الباحث عند الحديث عن هارون الرشيد، أنّه: "كان يحجّ سنة ويغزو سنة وفتح فتوحاً كثيرة ... يُقال: إنه كان يصلّي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة. وكان يتصنّق في كل يوم من صلب ماله بألف درهم. وكان إذا حجّ أحجّ معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمئة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الطاهرة!؛ ولهذا نعته الشاعر بأنه "خليفة حجاج" أي كثير الحجّ.

البيت رقم (٣)

وقال:

منع ابن غسطة رأسه بخراجه ولقد يكون وما عليه خراج

نقله الباحث عن رسائل الجاحظ، ولم يُشر إلى الشرح التاريخي لهذا البيت. والسؤال، ماذا يفهم القارئ من هذا البيت إذا لم يُشرح؟

قلت: أمّا غسطة، وصواب اسمها (اغسطة) لضرورة الشعر. واسمها ريني امرأة الإمبراطور اليون بن قسطنطين، ولم تزل هي وابنها قسطنطين بن اليون ملكين على الروم بقية أيام المهدي، وأيام الهادي، وصدراً من خلافة الرشيد. فقسطنطين هو الذي يسميه الشاعر ابن غسطة، وذكر الطبري في أخبار سنة ١٨٢، وفيها سمت الروم عيني ملكهم بن اليون، وأقرّوا أمه ريني، وتلقّب (اغسطة)، وذلك في أيام الرشيد: يُنظر التنبيه والإشراف ص ١٤٢.

إنّ إغفال الباحث شرح مناسبات الأشعار التاريخية والاجتماعية والأدبية، يجعلها عديمة الفائدة.

النتفة رقم (٦)

وأولها: كأثّه والقنّاء دوانٍ يوم على ليليةٍ مغير

قلت: أخطأ الباحث في ضبط ما تحته خط وصوابه: ليله، بدون نقطتين.

النتفة رقم (٧)

أورد الباحث البيت الأول بالصيغة التالية:

بمَجْرٍ يَضِلُّ اللَّيْلُ فِي حِجْرَاتِهِ سُرَادِقُهُ مِمَّا تُثِيرُ الْحَوَافِرُ

قلت: وقع خطأ في ضبط ما تحته خط وصوابه: بِمَجْرٍ يُضِلُّ. المَجْرُ (بفتح الميم لا بضمّها): الجيش العظيم.

النتفة رقم (٨)

أورد الباحث البيت الثاني منها مغلوطاً بالصيغة التالية:

ليس جودُ الجوادِ فضل مالٍ إنما الجودُ للمُقِلِّ المواسي

والصواب: ليس جودُ الجوادِ من فضل مالٍ، فقد اختلفَ وزن البيت بسقوط كلمة (من). وأمّا الأول: فلم تنسبه المصادر لسلم الخاسر.

النتفة رقم (٩)

أورد الباحث البيت الثاني منها بالصيغة التالية:

فما دان اللئامُ لغير بأسٍ ولا لأن الحديدُ لغير نار

خالف الباحث فيما أثبتته الأمانة العلمية، فنص البيت كما ورد في مصدره (الدرّ الفريد ٥/٢٧٢):

فما دنتِ الأسودُ لغير بأسٍ ولا لأن الحديدُ لغير نار

ثم إن هذه النتفة وردت للحيص بيص في ديوانه ٦٩/٣. وهذا كافٍ لثبوت نسبتها في ديوان محقق مطبوع. فلماذا أقحمها على شعر سلم الخاسر الوارد في هامش صفحة من الدرّ الفريد؟ وهي نسبة ضعيفة لا يعضدها دليل، ومن الشعر المتدافع.

مناقشة المستدرك على ديوان أبي الشمقمق

القطعة رقم (١)

وقع الباحث فيها في غلطتين:

الأولى: أنها ممّا لا يصحّ استدراكه؛ لثبوت وجودها في ديوان أبي الشمقمق، المطبوع في بيروت - دار صادر ص ٤٢ عن المصدر ذاته، وبتحقيق د. كارين صادر.

والثانية: أنه جرّدها من مناسبتها الأدبية والتاريخية؛ فالأبيات قالها أبو الشمقمق حين دخل مرة على عقبة بن سلم، وهو جالس بين بشار بن برد، ومروان بن أبي حفصة، واستأذنه في الإنشاد، فأذن له، فأنشده.
والثالثة: أنّ الباحث لم يشرح غوامضها، ومنها تعبير (أبو عمرة) وهو كناية عن الجوع والإفلاس.

البيت رقم (٢) من شعر أبي الشمقمق

أورده الباحث بالصيغة التالية:

قَد وُلِي فَارِسَ وَالْأَهْمَ ——— وَأَزَّ دَاوُدَ بَشْرَ بَشْرٍ

قلتُ: وقع الباحث في غلطتين:

الأولى: أنه لا يصحّ استدراك هذا البيت؛ لوروده في طبعة كارين صادر لديوان أبي الشمقمق ص ٥٦.

والثانية: أنه حرّف رواية البيت عن صيغته في مصدر قديم، وهو الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٩٤٦ ونصّه:

قَد وُلِي فَارِسَ وَالْأَهْمَ ——— وَأَزَّ دَاوُدُ بَشْرَ بَشْرٍ

بكر لا بشر.

المقطعة رقم (٣) من شعر أبي الشمقمق

قال الباحث: أنه نقلها من مخطوط وردت بعض ألفاظها مطموسة، واجتهد في قراءتها. قلت: كان على الباحث علمياً أن يُقَوِّسَ الكلمات المطموسة؛ لتعرف مواقع ومواضع اجتهاده، وهو ما لم يصنعه.

البيت رقم (٤)

أورد البيت التالي في المتدافع من شعره:

أَرَاهُنَّ يَرْقَعَنَّ الخُرُوقَ بِمَثَلِهَا وَايُّ لَيْبٍ يَرْقَعُ الخُرُوقَ بالخُرُقِ

نقلًا عن ربيع الأبرار.

وذكر أن البيت ورد ضمن مقطعة في أربعة أبيات منسوبة لأبي العتاهية في الأغاني ٢١/٤، ١٨٧/١٥، ومعاهد التنصيص. فكيف يُسَوِّغُ علمياً بعد الظفر بالصيغة الأكمل، العودة إلى نسبة بيت واحد من المقطعة لشاعر آخر؟ كانت الطريقة العلمية توجب إهمال هذه النسبة المتدافعة. فوجوده بصيغة أكمل في مرجعين قديمين، تجعل نسبتها الراجحة وغيرها مرجوحة. فأَيُّ فائدة علمية تُجنى من نسبة بيت واحد من هذه الأربعة الثابتة النسبة لأبي العتاهية في مصدرين قديمين؟

بعد هذه المستدركات، الساقط أغلبها علمياً، انصرف الباحث إلى تثبيت الاختلافات الكثيرة في نسبة الأبيات في شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة.

ولقد اتَّضح لي أن الباحث لم يطلع على المنهج، الذي أقرته لجنة وضع وتقنين قواعد تحقيق النصوص، في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية سنة ١٩٨٠، المنعقدة ببغداد للمدة من ٢٠-٣٠/٥/١٩٨٠. لقد ارتأت اللجنة عدم وجود ضرورة لاستقصاء روايات الأبيات أو اختلاف نسبتها؛ لأنَّ وراء هذه الاختلافات في صيغة الأبيات أو في نسبتها أمور عدّة منها: عبث الرواة، وعبث النساخ، والظرف الثالث. وإنَّ هذه الأمور كانت وراء اختلاط الشعر العربي والعباسي، بخاصة، واضطرابه والاختلاف في نسبة كثير من أشعاره، هذا عدا الانتحال، والدسّ، والوضع، وتداخل الأشعار ممّا اشتهر به الشعر العباسي.

فعدم استيعاب الباحث لخطورة الظرف الثالث في حياة ومسيرة النتائج الأدبي والشعري، خاصة؛ دفعه إلى هذا المزلق الخاطئ فيما كتبه.

وأعني بالظرف الثالث، الظرف الاجتماعي والنفسي، الذي تغافل عنه النحويون؛ فضاء بين الخطين غير المتوازيين لظرف الزمان وظرف المكان. ويغلب أن يغفله مؤرخو الأدب؛ لاتجاه أذهانهم إلى البيئة وعواملها بوجه عام. غير أبهين إلى وجوب تتبّع آثار هذه العوامل في النصوص الشعرية نفسها، وفي مسيرة حياتها عبر القرون، وفي نفوس الذين اشتغلوا بتدوينها وشرحها ونقدها، وقاموا بعمليات النقل والتوصيل من جيل إلى جيل.

إنّ لكلّ ديوان ولكلّ شعر سيرة حياة تنطلق من حياة ناظمه إلى الآخرين، حيث يلقي تدوينها ودرسها ونقدها مؤثرات متتالية، مؤثرات لا تنحصر في نقطة ثابتة في الزمان أو المكان، بل تحيا فاعلة ومنفصلة بأحداث الزمن المتحرّك أو بالتاريخ بمعناه الواسع.^(١)

وخلاصة ما تقدّم: إنّ عبث الرواة وعبث النساخ والظرف الثالث، تقف كلها وراء هذه الاختلافات الكثيرة في رواية الأبيات والاختلافات الجمة في نسبة الأشعار، وهي اختلافات يجب طرحها جانباً، والأخذ بالرأي الأرجح؛ لصنع ما ضاع من دواوين السلف؛ كي تكتمل الصورة التي يستطيع بها مؤرخو الأدب كتابة تاريخنا الأدبي بعمق ووضوح وجلاء، بلا تنطّع في استخدام أجهزة الحاسوب؛ لتثبيت هذه الاختلافات، زيادة في تثبيت ما اتّفق على وحدته.

وبعد، فقد اتّضح لي أنّ الباحث قدم مستدرکاً ضمّ أربعة وثلاثين بيتاً على دواوين ثلاثة شعراء، جمع شعرهم غرونباوم، ونشره قبل أكثر من خمسة عقود، وأن

١- يراجع بحث الدكتور علي الزبيدي عن الظرف الثالث المنشور في مجلة الآداب بجامعة

بغداد.

اثنين من هؤلاء الثلاثة، صُنعت دواوينهم، ونُشرت وهما: سلّم الخاسر و(أبو الشمقمق). وأنّ هذه الأبيات المستدركة، التي قدّمها الباحث، بعضها موجود فعلاً، في الدواوين المطبوعة، فلا يصحّ استدراكها. وبعضها الآخر غارق في أخطاء الضبط، وثالث لم تُشرح تعابيره التاريخية أو اللغوية الغامضة، ورابع جُرد من مناسباته، خلافاً لقواعد التحقيق العلمي؛ ممّا جعل حصيلة البحث العلمية أو المعرفية ضئيلة للغاية أو في حكم اللاغية.

وإنّ محاولته (تمطيط) بحثه وإطالته، بإضافة فصل في ما يجب نقله من قسم الصحيح النسبة إلى الشاعر إلى قسم المتدافع لا يشكّل موضوعاً جديراً بالبحث؛ لأنّ نظرية الظرف الثالث أسقطت مثل هذه البحوث للأسباب التي ذكرناها تفصيلاً، وفوق كل ذي علم عليم.